الجزء الأول

هرطقات وقوى سلطوية

الفصل الأول

الإسلام والملل الإبراهيمية

حتى بدايات القرن السابع الميلادى، لم تكن شمس الإسلام قد لاحت بعد فى الأفق إلى أن تنزل الوحى الإلهى على النبى محمد لنشره فى الآفاق. على أنه لا يستقيم النظر إلى نشأة الإسلام وانطلاق شرارته الأولى كلحظة فارقة، أو بالأحرى كنقطة تحول فى تاريخ الشرق الأوسط. فمن المنظور السياسى، يمكننا اعتبار تلك النشأة حدا فاصلا بين عهدين، أما من المنظور الدينى والحضارى، فمن السهولة بمكان اعتبارها امتدادا لمسيرة الفكر التوحيدى وتطوره بالشرق الأوسط. واليوم، فإننا نشهد استخدام مصطلح "الملل الإبراهيمية" بكثافة وهو ما يظهر وعيا وإدراكا بذلك التراث التوحيدى ثلاثى الأبعاد والمرتبط بنبى الله إبراهيم لينتظم كلاً من اليهودية والنصرانية والإسلام ... وما بينها من وثاقة صلة ولصوق عرى، بغض الطرف عن التباينات السياسية التى نشأت بين معتنقيها على امتداد الزمن.

وهذا تماماً ما رمنا إيراده : فقد قامت السياسة والصراع على السلطة بالإيحاء بجسامة التباينات العقدية وذلك توخيا لمآرب سياسية بعينها، بدلا من أن تؤكد على التراث البيني المشترك. وهنا تطغى اعتبارات السياسة : إذ نجد أن مظاهر التوتر الجيوبوليتيكى المزمن فى الشرق الأوسط والتى سبقت ظهور الإسلام ما زالت قائمة. ويبدو من غير المقبول النظر إلى الإسلام كعنصر دخيل على التراث الدينى بالإقليم، إذ استوعب واستحث وتفاعل مع الكثير من المشارب والحضارات الراسخة به.

وتجلى خريطة الشرق الأوسط الدينية فى حقبة ما قبل الإسلام عالماً تسوده النصرانية متمثلة فى الأرثوذكسية الشرقية، إلى جانب نصيب بسيط تقتطعه الزرادشتية التوحيدية ببلاد فارس (فى ظل حكم الإمبراطورية الساسانية)، ونزر يسير من تجمعات يهودية فى قطاعات حضرية معدودة، مع هيمنة بوذية وهندوسية

على شبه القارة الهندية. أما أوروبا، فكانت فى جزء منها مسيحية، وفى الجزء الآخر وثنية. لذا، يعد الإسلام وافدا لاحقا على تلك الملل جميعا، بل وخاتم الأديان تاريخياً، التى استطاعت بسط هيمنتها على دعائم الدولة وأركانها. ولقد عوّض الانتشار السريع للإسلام عن مجيئه المتأخر.. ليحظى بوضع سيادى مهيمن على أراض جد شاسعة خضعت فى السابق للسيطرة المسيحية والزرادشتية فى الشرق الأوسط. فإن لم يكن ثمة إسلام، لكان الأرجح أن تظل الأرثوذكسية الشرقية الملة السائدة فى الشرق الأوسط إلى الآن، باستثناء إيران التى غالبا ما كانت ستبقى معتنقة للزرادشتية.

وفيما كان التوسع الإسلامى وغزوه للكثير من البلدان ذا أثر سياسى كبير كما هو شأن أى غزو، لم يكن للإسلام، من المنظور الثيولوجى أثر ملموس فى رعايا تلك البلدان فى العقود الأولى، فلقد انبثق الإسلام، فى واقع الأمر، من أجواء المناخ

الدينى السائد فى الشرق الأوسط حينذاك على نحو عفوى. أما المدهش بحق : كيف استطاع الإسلام التوافق والاتساق بيسر مع البيئة الدينية القائمة؟

كذلك، فلم تكن نشأة الإسلام حدثا غير ذى بال وقع فى صحراء نائية تضربها العزلة ... ولم يكن الإسلام نبتة حضارية شاذة منبتة الصلة ومبتورة الجذور عن الحضارة الغربية. لقد نبعت أفكار الدين الإسلامى مباشرة من مناخ حضارى متوسطى وشرق أوسطى أرحب شهد سجالا وتبادلا كثيفا للأفكار الدينية، وحوارا وتلاقحا فكريا خصبا. ولعله لا يوجد ضمن أقاليم العالم ما شهد العديد من الملل والطوائف الدينية تذرع أرجاءه بقدر ما شهد إقليم الشرق الأوسط. وبانتشار الإسلام، ألفينا تكرار تداول المواضيع والاهتمامات التى كانت جزءا من التطور المبكر لليهودية والنصرانية. فبعد معاينة مسيرة النضال والكفاح الدينى والعقدى للنصرانية على امتداد القرون الستة الأولى لنشأتها، (وهو ما سنتناوله لاحقا)، فإن تعرفنا إلى الإسلام لا يثير كثير دهشة ... فالمعتقدات والقضايا الجدلية التى تمخض عنها الإسلام لتجد جذورها فى جدالات جد مألوفة : ما طبيعة الإله الواحد؟ هل كانت الملة اليهودية مرسلة إلى اليهود خاصة، كشعب الله المختار وأصفيائه، أم للبشرية بأسرها؟ هل المسيح، بحق، ولد الله، أم بشر موحى إليه من قبل الله؟... سنتناول من فورنا، بالتحليل، الطبيعة الآسرة للكثير من تلك الجدالات مشيرين إلى أنه قد كتب لبعض المعتقدات الدينية الذيوع بدعم من السلطة السياسية، فيما تم النظر إلى البعض الآخر ذى الدعم السياسى الأدنى باعتباره تجديفا وهرطقة.

وفضلا عما سبق، سنرى إلى أى مدى كانت تلك الصراعات المذهبية والعقائدية ترتبط بسياسات الإمبراطوريات العظمى، فالسلطة تجتذب الدين ... والدين يجتذب السلطة، وتأتى الاعتبارات "اللاهوتية" لاحقا. كذلك، فإن القوى الراسخة للحضارة والتقاليد والتاريخ والمعتقدات على قدر هائل من القوة والفاعلية ... إذ لديها من عظيم القوة ما يمكنها من توجيه ما يستجد من أحداث صوب

الأقنية الراسخة ... إذاً فقد كان الإسلام، في حداثته وكذا في وهجه وألقه الحضاري المذهل، ثمرة محيطه الأرحب.

شبه الجزيرة العربية

لم تكن شبه الجزيرة العربية موضعا يعاني العزلة، بل تفاعل مع موجات التيار الفكري الهائلة السائدة آنذاك. ولقد كانت اليمن، إلى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة، مهدا لواحدة من أقدم حضارات الشرق الأوسط، بل ربما الموطن الأصلي للشعوب السامية جميعا. لقد ارتحلت القبائل السامية في وقت جد مبكر من اليمن باتجاه بلاد الرافدين حيث بسطت هيمنتها على المملكة السومرية قبل ميلاد السيد المسيح وأحالتها حضارة سامية. كذلك، كانت هناك حركة تجارة رائجة للتوابل والمنسوجات امتدت لتشمل سواحل البحر الأحمر ومصر، وكذلك البحر المتوسط حيث كانت هناك علاقات ذات طابع دوري مع الفينيقيين منذ أقدم العصور. فقد زعم أن ملكة سبأ أقامت في اليمن وربطتها علاقات مع مملكة أكسوم المسيحية في الحبشة. وقد كان للنصارى واليهود مجتمعات ممتدة في اليمن، كذلك، كان للفرس وجود بها في حقبة من الزمن.

وفي الشمال، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر وعلى مقربة منه، تقع مكة، إحدى أهم المدن بشبه الجزيرة، والتي يرجع تاريخ نشأتها إلى أكثر من أربعين قرناً. وفي التاريخ القديم، لم يرد ذكر «مكة» إلا لماماً إلى أن بعث النبي محمد. وقد أصبحت مكة مركزا تجاريا هاما على امتداد البحر الأحمر وطريق التجارة مع سوريا. ولقد عاشت مجتمعات اليهود الكبيرة في غير مدينة من مدن الحجاز، وبخاصة يثرب. وإلى الشمال، تقع الأراضي المسيحية من الإمبراطورية البيزنطية، وما تضمه من مراكز هائلة في الأراضي التي تعرف اليوم بسوريا والأردن.

لقد احتضنت شبه الجزيرة العربية مختلف دياناتها التقليدية والمتمحورة حول آلهة محلية أو قبلية تماثل تلك المعروفة للشعوب السامية الأخرى، بمن فيهم اليهود

الأوائل. أما عبادة تلك الآلهة، فقد تركز معظم طقوسها حول "الكعبة" فى مكة، والتى كانت موئلا لنحو ثلاثمائة وستين تمثالا للآلهة، من بينها تماثيل للسيد المسيح والعذراء مريم. وقد منحت مزارات العبادة تلك مكة سطوة وحظوة اقتصادية فضلا عن قوة سياسية كبيرة. وبذا، آل لمكة أن تحكم قبضتها وتبسط سيادتها على تجمع قبلى عظيم بهدف الإشراف على السياسات القبلية البينية المعقدة بشبه الجزيرة، وكذا تحجيم الحروب والصراعات القبلية المزقة للأواصر والمفتتة للحمة الوشائج. وكنتيجة لذلك، أبرمت مكة معاهدة تعاون مع بيزنطة لتيسير انسياب حركة التجارة خلال ربوع الإقليم. ولقد كان رخاء مكة وازدهارها سببا مباشرا فيما استجد من توتر سياسى واجتماعى بها، حيث تداعت أركان البنيان القبلى القديم وهياكله، وكذا علاقات التكافل والدعم فيما بين ذوى القربى والأرحام، وذلك بفعل نمو اقتصاد سوقى مزدهر ... إذا، فقد كانت القيم الاجتماعية القديمة تنحو إلى المغيب لتفسح المجال لقيم جديدة لتحل محلها وتملأ فراغ غروبها.

تلك كانت طبيعة المنطقة من المنظور الجيوبوليتيكى والثيولوجى، إلى أن جاء عام ٦١٠ من ميلاد السيد المسيح ليشهد إرهاصات الوحى الإلهى للتاجر المكى محمد، والذى كان آنذاك فى مقتبل العمر ... ذلك الوحى الذى أضاف فصلا جديدا إلى فصول الفكر التوحيدى. ولقد تيتم محمد منذ الصغر فكفله أحد أعمامه والذى جعله يرعى له أنشطة تجارته. وعندما بلغ محمد الأربعين، وفى أثناء بعض من خلواته التأملية بغار فى مكة، هبط الملاك جبريل إليه وأمره أن يقرأ كلمات بذاتها أرسلت إليه من لدن الله، ثم أمره أن يعظ بأن الرب واحد وأن ينشر رسالته إلى القبائل الإقليمية، وإلى المجتمع الضال بمكة بما فيه من وثنية وما هو عليه من تعدد للآلهة. ولقد واصل محمد المسير لنشر تلك الرسالة وللتنديد بالهرم الاجتماعى الصارم وغير المنصف، وكذا التنديد بملامح عدم التوحيد فى محيط الكعبة، وهى رمز سيادة سطوة مكة وأهمية تجارتها.

ولعل الأهم هو كون محمد قد أوضح مبكرا أنه امتداد لمن سبقه من أنبياء الله

كأنبياء "العهد القديم"، بل إنه يتبع نهج من سبقهم من أنبياء كآدم أبى البشر (وأول نبى فى الإسلام)، وإبراهيم. ويشير "القرآن"، وهو السفر الحاوى لجميع ما أوحى إلى محمد، إلى أن هؤلاء الأنبياء هم "أول المسلمين"، ويلح محمد، كذلك، فى أنه نبى الله ورسوله، ويقرر طبيعته البشرية. ووفقا لمن يحيا فى شبه الجزيرة العربية وتخومها، فإن رسالة محمد ليست جديدة بالكلية عما قد عهدوا سالفاً، بل هى إقرار وتوكيد على وحدانية الله، فى صيغة جديدة. ولقد قدم محمد طرحا جديدا واضحا خالياً من النظريات المبهمة والملغزة والتى تتضارب فيما بينها حول طبيعة المسيح ... تلك النظريات التى أحدثت صدعا فى بنيان الأوساط اللاهوتية على امتداد أراضى المملكة المسيحية الشرقية طيلة ستة قرون. كذلك، فقد شدد على حاجة البشرية إلى أن تثوب إلى تعاليم الله الداعية إلى إرساء جماعة أخلاقية.

إن ما يتطلبه اعتناق الإسلام جد بسيط : فعلى من يرغب فى ذلك أن ينطق بالشهادة وهو موقن ومؤمن بها ... وصيغة تلك الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. ويتحتم على كل مسلم أن يلتزم بأركان الإسلام الخمسة، وهى : إقرار الشهادة، والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وتأدية مناسك الحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، وإيتاء الزكاة.

ويستلزم الإيمان إقرار توحيد الألوهية والربوبية، والإيمان بأنبياء الله ورسله أجمعين بمن فيهم، موسى وعيسى ومحمد، والإيمان بالملائكة، والإيمان بكتب الله ورسالاته جميعها، بما فيها التوراة والإنجيل والقرآن، والإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة)، والإيمان بالقدر، خيره وشره. ولقد أدت دعائم الدين الجديد وأركانه إلى سهولة التعرف إلى الدين الجديد والإيمان به.

ولقد ارتأى محمد، كأول مبشر بالدين الجديد ... ذلك الدين الذى يعنى اسمه الانقياد لأوامر الخالق، الحاجة إلى توضيح الرسالة التوحيدية وتعميق أثرها، ونبذ الأفكار المغلوطة والعقائد الفاسدة التى تسللت إلى التأويل البشرى لكل من التوراة

والإنجيل، على أن روح الوحى كانت واحدة للرسالات جميعا.

وينكر علماء الإسلام أى ارتباط سببى يتعلق بنشأة الإسلام ما لم يكن إلهيا أو مقدسا، أو بعبارة أخرى، فإن هؤلاء العلماء لا يقرون أية مصادر أو تأثيرات محتملة، إن خارجية أو إقليمية أو غير إلهية، فى طبيعة الوحى المرسل إلى النبى محمد، ويبدو هذا متسقا مع إطار التزامهم العقدى. بيد أن البيئة التى نشأ بها محمد والمناخ الذى أحاط تطوره كان لهما، بطبيعة الحال، أثر على تكوينه العقلى وسمات شخصيته وطرائق تفكيره. كذلك، من الجائز أن يكونا قد أثرا فى استعداده لتلقى الرسالة والكيفية التى أدرك بموجبها الوحى واتبع تعاليمه هو ومريدوه وأتباعه. لذا، فإن الحق مقرر لمن يريد أن يتناول بالبحث والدراسة المؤثرات الخارجية المحتملة والممكنة فيما يخص الوحى المرسل ومعايشته وتأويله، وذلك بالتوازى مع تجارب الوحى المرسل إلى الأنبياء الآخرين عبر التاريخ.

ففى شبه الجزيرة العربية فى تلك الآونة، كانت معظم التعاليم الجديدة التى اشتمل عليها القرآن مفاهيم مقبولة ومألوفة، بدءا من الاعتقاد اليهودى المنكر لأن يكون عيسى بن مريم هو "المسيح"، والذى ينظر إليه على أنه مجرد مقوم لما طرأ على الوعى الإيمانى من انحراف. كذلك، فقد كانت "الهرطقات المسيحية" التى انتشرت على امتداد الشرق الأوسط بشأن جميع الملامح المحتملة لطبيعة المسيح – مألوفة وسائدة. وبحق، فقد كانت السمة التوحيدية الصارمة التى تصبغ القرآن أقرب، من نواح عديدة، إلى آراء نصارى الشرق الأوسط الأوائل عنها إلى المفاهيم اللاهوتية بالغة الجمود للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فى السنوات اللاحقة. وقد كان المفهوم التوحيدى، بما له من تنويعات، هو السمة السائدة التى تغلغلت فى أوصال حضارات الإقليم بأسرها.

إن النبى محمداً لينفرد عمن عداه من أنبياء بتسليط التاريخ للضوء على شتى جوانب حياته. إذ يحفل القرآن وما سجله صحابته من أقواله وأفعاله (الحديث)

بإشارات وبيانات عن حياته بجوانبها المتعددة. ولكن تبقى الإشكالية ذاتها التى واجهت معظم الملل السابقة، ومنها النصرانية : إلى أى مدى يمكن الركون إلى دقة وأمانة ما سطره مجايلو النبى بشأن سيرته، وما يخص أفعاله وأقواله؟ إذ تواتر نقل تلك الأفعال والأقوال على نحو شفاهى، ولم يتم جمعها أو تحليلها أو تقييمها منهجيا فى شكل كتابى إلا بعد انقضاء ما يزيد عن قرن كامل من وفاة النبى محمد. وتتشابه تلك المهمة، بما اكتنفته من إشكالية، مع نظيرتها "المسيحية" الخاصة بجمع كل ما سطر عن حياة المسيح بغية تعيين أى الأناجيل يمكن الوثوق بها والارتكان لمصداقية ما تحويه ... وما يزال هذا الطرح حافلا بالجدل وتضارب الرؤى ويعوزه الحسم للقضاء على ما يثيره من بلبلة وحيرة.

وفى حين لا تحيط "الحديث" هالة القداسة التى تحيط "القرآن"، كون الأخير وحيا مباشرا من لدن الله، إلا أن "الحديث" يعد مصدرا بالغ الأهمية للتشريع الإسلامي بما يحويه من نصوص تتناول قضايا محددة وواضحة نشأت خلال مسيرة تطور الجماعة الإسلامية فى بواكير تكوينها. كذلك،، يقدم "الحديث" دليلا هاما على كيفية إدراك النبى ذاته لما أوحى إليه وآلية تطبيقه فى شتى المواقف. ولعل أوجه الشبه تتضح حين النظر إلى سؤال النصارى اليوم : "ماذا عسى المسيح فاعلا فى هذا الموقف أو ذاك؟!".

إلا أن جماعات قليلة من المسلمين تذهب إلى أنه يتعين، لما للقرآن من قداسة، اعتباره المصدر الوحيد لفهم الإسلام، نظرا للطبيعة المتشعبة لنصوص "الحديث" فى شتى تناولاته، والذى تتباين درجات قوته ومصداقيته من حيث تطابق لفظه والإجماع بشأنه، وكذلك تبنى السلطات لأحاديث بعينها، دون غيرها، لتحقيق مأرب ما أو تسويغ فعل مزمع. ومن المثير ملاحظة ملمح الشبه والتوازى بين ذلك، وبين قاعدة الاحتكام "للكتاب فحسب" Sola Scriptura، والتى تبنتها حركات الإصلاح الدينى المسيحى التى نبذت أرتالا من التاريخ الكنسى وما لحقه من زيادات وحواش، ورفضت الخضوع لأحكام المجالس الكنسية وغيرها، لما حداها من أمل

ورغبة فى تأسيس فهم دينى سليم يرتكن إلى تعاليم الإنجيل فحسب.

إن العراقيل التى صادفها تطبيق الدين الجديد ونشر تعاليمه العقدية والسياسية مجتمعيا كانت مثبطة للهمم، خاصة إزاء المعارضة والصدام المسلح المبكر من النخبة "المكية" التى استشعرت تهديد الرسالة المحمدية لنفوذها وسطوتها وثرواتها الطائلة. ولقد ارتحل النبى محمد وأتباعه إلى يثرب (والتى سميت بـ "المدينة"، فيما بعد)، حيث أسس نواة المجتمع الإسلامى الأول، ودُعى إلى الوساطة بين القبائل المتناحرة بها بغية إرساء مناخ من السلام والتعايش الآمن، وهو ما عرف بـ "ميثاق المدينة" أو "صحيفة المدينة". ووفقا لهذا الصلح، فإن حقوق ومسئوليات شتى القبائل والجماعات الدينية بـ"المدينة"، وطبيعة التعامل فيما بينها، كاليهود والنصارى والمسلمين، قد دوّنت فى وثيقة صلح وتسوية. إلا أنه، وبالتزامن مع ذلك الصلح، فقد ظلت جماعات المسلمين لسنوات طوال مهددة سياسيا وحربيا من قبل القوى العدائية بمكة والمتربصة بها الدوائر فى عدائها السافر للإسلام ... إلى أن كفت مكة عن المعارضة وكتب للنبى محمد، فى عام ٦٣٠، أن يفتحها ويدخلها منتصرا دون إراقة للدماء. وقد أشار القرآن، فى بعض آياته، إلى جانب من ملامح ذلك السجال الممتد من المواجهات والتوترات وذلك التاريخ الحافل بالعداء والتناحر والنكث بالعهود، فى نضال المسلمين للاتحاد بوجه العدو الساعى إلى تدمير الجماعة الإسلامية الناشئة. وتتشابه تلك الآيات ودلالاتها، إلى حد بعيد، مع أونة بعينها جاهد فيها اليهود لمجابهة اعتداءات القبائل المناهضة للسامية وإجهاضها، حيث دعا "العهد القديم" إلى استئصال شأفة كل أعداء اليهود بلا أدنى رحمة أو هوادة ... أولئك الذين وقفوا كحجر عثرة فى وجه تأسيس الدولة فى "إسرائيل"، فلم تكن التسوية السلمية والمهادنة، إذا، طابعا يسم تلك الآونة القلقة والمأزومة فى كلا المعسكرين.

لقد كان لإشكالية مدى القدرة على الارتكان إلى مصداقية نصوص "الحديث" انعكاسات سياسية كبيرة حين نما الإسلام وامتدت رقعته وانخرط فى إرساء دعائم

الدولة الإسلامية. وكما بالنسبة للكنيسة المسيحية، فإلى أى مدى ستتمكن السلطات الدينية والعلمانية المسلمة من النجاح فى سعيها، على نحو ارتجاعى، لتأويل رسالة الإسلام؟ فعلى نقيض النصرانية، تجنب الإسلام لحسن الحظ الخوض فى الجدل بشأن الطبيعة المقدسة للنبى محمد من عدمها، والتى لم يزعم أحد قط، بمن فيهم النبى ذاته، أنها سمة تميزه. كذلك، فلم يشهد الإسلام سوى بعض الهرطقات الضئيلة والانقسامات حول أسس تأويل النصوص المقدسة وركائزها، مقارنة بالنصرانية. ولعل السبب فى ذلك يرجع، فى جانب منه، إلى اعتبارات رؤيته الثيولوجية ذات التوجه الهادئ المتسامح. إلا أنه، وإلى اليوم، تظل للأسئلة بشأن مشاكل تفسير القرآن و"الحديث" النبوى أهمية كبيرة، خاصة فى ظل التطور الدائب للإسلام.

وبانتشاره واتساع رقعته، صادف الإسلام لغات وثقافات مغايرة ... كما واجه امتدادات جغرافية وتجارب تاريخية جديدة. وكغيره من الأديان، واءم الإسلام ذاته للاتساق ومقتضيات المحيط المحلى كيما يسهل تقبله واعتناق مبادئه. بيد أن الإصلاحيين المتأخرين قد نظروا إلى بعض من المواءمات والإضافات إلى الدين باعتبارها تشذ عن روحه كونها بدعة تستوجب الاستئصال للعودة إلى منابع الدين كهيئته الأولى. فإلى هذه الأسس، سيرتكن بنيان حركات التجديد الإسلامى والأصولية الدينية. وبالمثل، فقد كانت الإضافات إلى الملة النصرانية سببا لظهور المصلحين الأوائل من أمثال "مارتن لوثر".

إن الخلافات ما بين الملل ومعتنقيها نادراً ما ترتكن إلى تباينات ثيولوجية بعينها، وإنما إلى ما تنطوى عليه من مناح سياسية واجتماعية. فهلم ندلف إلى لب بعض من التباينات الثيولوجية القائمة، بحق، ضمن إطار العلاقة ثلاثية الأبعاد بين اليهودية والنصرانية والإسلام. فإلى أى مدى أثرت تلك التباينات، بحق، فى البعد السياسى بالشرق الأوسط فى التاريخ القديم والأوسط؟ إذا ما أنعمنا النظر، ألفينا تكرارا لنقاشات جدلية بعينها بشأن مفهوم التوحيد وكنهه راجت فى ذلك الإقليم

وعمت ثقافته. كما نلحظ أن الإسلام بدلا من أن يحدث تحولا ثيولوجيا بالإقليم قد خلص إلى أن تبنى نهجاً وسطياً توافقياً بين اليهودية والنصرانية، مؤكدا على القاسم الثيولوجى المشترك فيما بين ثلاثتهم. أما النظريات الحديثة الرائجة، والتى تذهب إلى أن الإسلام يمثل قوة حضارية وثيولوجية مخالفة للاعتقاد اليهودى/ المسيحى بما لهذة القوة من طبيعة صدامية تدميرية، وأنها قد أرست أسس المشاعر المعادية للغرب والمناهضة له لاحقا ... فينطوى الإيمان بها على نزع الإسلام من سياقه الحضارى والتاريخى. إن الإسلام، وبحق، يمثل بعضا من أعمق النزعات الحضارية والفلسفية والدينية فى الشرق الأوسط، ويرسخ لها ... بما فيها مقاربته المتسمة بالحذر تجاه الغرب. على أن الإسلام لم يخلق تلك النزعات أو يؤسس لها، فإذا ما نحينا "الإسلام" جانبا - ألفيناها قائمة وسارية. إذا، فهلم نرى كيف تنظر كل ملة -من تلك الثلاث- إلى الأخرى.

رؤية اليهودية للنصرانية وللإسلام

كان للانتقادات اليهودية للنصرانية تأثير جلى فى بعض الهرطقات المسيحية اللاحقة، وفى الإسلام كذلك. بداية، فإن القضية الفريدة بالغة الحساسية فى الشرق الأوسط برمته هى قضية "طبيعة المسيح" فائقة الأهمية. فعلى حين يؤمن النصارى بأن عيسى بن مريم هو المسيح الذى سيبعث ثانية وفقا لنبوءة "العهد القديم"، ينكر اليهود ذلك الاعتقاد. وتذهب آراء بعض المسيحيين إلى كون اليهود أسوأ الهراطقة على الإطلاق، ذلك لأنهم ينكرون بالفعل ما تنبأت به التوراة من مبعث للمسيح. وينكر علماء اليهود وأحبارهم ذلك الطرح زاعمين أنه من الجلى أن عيسى بن مريم لم يكن ذلك "المسيح" الذى وردت نبوءته فى "العهد القديم". فوفقا لمزاعمهم، ينبغى للمسيح "الحق" أن تتوافر له بعض النبوءات، تحديدا، حتى يمكن القول، وبحق، إنه المسيح ذاته : إذ يجب أن يولد من النسل الذكورى للنبى داود (يتم الزعم بأن عيسى هو ولد الله)، كما يتعين عليه الالتزام بالشرعة التوراتية وإنفاذ تعاليمها (لم يقم عيسى بذلك، بل حرص على أن يغير تلك الشرعة). كذلك، يجب أن يجئ مولد

المسيح "الحق" مواكبا لحقبة من الزمان يسود السلام ربوع الأرض خلالها حيث تنتفى الكراهية والاضطهاد – وهو ما لم يحدث بالفعل. كذلك، ذهب "العهد القديم" إلى ضرورة تحقيق المسيح لذلك الوحى وتلك النبوءات من فوره، وليس عقب "مبعث جديد" أو "رجوع آخر"، ذلك المبعث الذى لا ذكر له مطلقا فى "العهد القديم". وفضلا عن ذلك، ينكر اليهود المفهوم القائل بأنه يمكن تخليص البشرية من خلال تضحيات المسيح وآلامه، بل ينكرون ذلك على أى من كان، فلا يأتى الخلاص، وفق آرائهم، إلا بالحياة الصالحة المستقيمة كما نص عليها الشرع اليهودى.

ويذهب اليهود، كذلك، إلى اتهام عيسى بن مريم وإلقاء اللوم عليه لإفساده عقيدة التوحيد اليهودية، ونشر بذور الفرقة والشقاق ما بين اليهود وتأليب بعضهم على الآخر، وإضعاف شوكة اليهودية ... إلى الحد الذى ذهب معه موسى بن ميمون، الفيلسوف واللاهوتى اليهودى القروسطى فى إسبانيا المسلمة إلى أن:

"أول من تبنى هذا النهج (إبادة العنصر اليهودى وطمس هوية الأمة اليهودية بأسرها لتضحى بلا أية معالم تذكر) هو عيسى "الناصرى"، قاتله الله ... الذى أكره الناس على الإيمان بأنه نبى مرسل من لدن الرب لكشف الغموض وتجلية ما استغلق على فهم الناس للتوراة، كما جعلهم يؤمنون بأنه "المسيح" الذى تنبأ كل عراف بمجيئه. لقد عمد إلى تأويل التوراة وتعاليمها على نحو أدى إلى محقها وإبطالها تماما، وإلى إلغاء جميع ما احتوته من وصايا، وانتهاك ما بها من نواه ومحظورات. ولقد فطن حصفاء الأمة وحكماؤها، تغمدهم الرب برحمة منه، إلى تدابيره وخططه تلك قبل ذيوع أخباره بين شعوبنا، بتعيين العقوبة الملائمة بحقه".

إذا، ومن وجهة النظر اليهودية، تذهب تلك الجدالات إلى رفض الطرح المسيحى بأن اليهود ينكرون المسيح عن عمد كما جاءت به نبوءة "العهد القديم"، وتجلى تلك الانتقادات أنه من الواضح تماما لعلماء اليهود وأحبارهم أن عيسى ابن مريم لا تجتمع لديه الشروط اللازمة لأن يكون "المسيح" الموعود.

ويأتى الإسلام كطرح وسطى، حيث يقر بأن عيسى بن مريم – عبد الله ورسوله، أيده الله بالمعجزات وخوارق العادات، وأنه ولد مريم العذراء ... مريم، التى تحمل السورة التاسعة عشرة من القرآن اسمها، والتى ذكرت به أكثر من أية امرأة أخرى، بل أكثر مما ذكرها الإنجيل ذاته، كونها المرأة الأكثر تبجيلا وتوقيرا فى الإسلام.

إلا أنه، ووفقا للإسلام، ليس عيسى بن مريم إلها بذاته، أو ولد للإله، بل بشرا نبيا موحى إليه من لدن ربه. ذلك أن الله واحد لا شريك له. ويعد إنكار كون عيسى بن مريم نبيا، من المنظور الإسلامى، انتهاكا للإيمان بالإسلام ذاته. فعلى سبيل المثال، يذهب المسلمون إلى اعتبار الأعمال الفنية المسيئة للمسيح عيسى بن مريم ضربا من الكفر والتجديف. ويرد ذكر عيسى بن مريم فى الإطار القرآنى بأنه "كلمة الله"، و"روح الله"، وتنتفى تماما أية إشارات تحط من قدره فى القرآن. لذا، وفى "عالم بلا إسلام"، يظل النقد اليهودى الفظ لعيسى بن مريم قائما، كما تم التعبير عنه فى الملة اليهودية.

وبالمثل، تنكر اليهودية محمدا كنبى مرسل من لدن الله. ورغما عن ذلك، فإن العلاقة فيما بين الإسلام واليهودية لتلفت الأنظار وتسترعى الانتباه، فهى أوثق صلة، فى روحها، من علاقة أى من هاتين الملتين بالنصرانية. فاليهودية والإسلام يشددان تماما على النهج التوحيدى المميز لهما، كما أن كليهما يعلن وحدانية الله مرات عديدة خلال شعائر الصلوات اليومية. كذلك فإن اليهود والعرب شعوب سامية اقتسمت، على امتداد آجال طوال، حيزا جغرافيا مشتركا، وجمعها تاريخ مشترك، كما أنها تتحدث لغتين شديدتى الشبه فيما بينهما. إن الإسلام واليهودية يلتزمان كلاهما بالشريعة المنتظمة لهما، حيث يتحقق الخلاص الفردى عن طريق اتباع تعاليم الشريعة وتطبيق مقتضياتها عبر الحياة اليومية. كذلك، توجد بهما محاكم شرعية للقضاء والبت فى شتى القضايا بموجب الشريعة. وتشدد اليهودية على عدم جواز تجسيد الإله أو تصويره، كما تذهب إلى أنه لا يوجد للإله قالب أو كيان

بشرى. كذلك ينظر الإسلام النظرة ذاتها إلى عدم جواز خلع الصفات البشرية على الله مطلقا. لذا، فإن الفن المسيحى، من وجهة نظرهما، يعد صادما، إن لم يكن تجديفا وكفرا ... ذلك الفن الذى لا يجد أدنى غضاضة فى تصوير الإله على نحو صريح ومباشر وبأسلوب سافر مفصل لا تحده أية ضوابط، وهو المشاهد أينما جال النظر فى غزارة تصوير المسيح وفق تنويعات جمة من التراكيب والأوضاع.

إن اليهودية والإسلام ليشتركان فى العديد مما ينظم طقوس الطعام، وذبح الحيوان، وتحريم أكل الخنزير، ومقتضيات النظافة والطهارة. ولقد تأثر اليهود الشرقيون (السفارديم) فى ممارساتهم لشعائر دينهم بقرون طوال عايشوا خلالها المسلمين فى حياتهم وطقوسهم اليومية. وفيما عانى اليهود كثيراً منه تاريخ دموى طويل، فقد عانوا كذلك فى أوقات بعينها جاوروا خلالها المجتمعات الإسلامية، إلا أن علماءهم وأحبارهم يكادون يجمعون على أن الحضارة والمجتمع اليهوديين قد تعايشا عبر القرون فى ظل مناخ أكثر عدلا وأقل عنفا مع "الإسلام" عما كانت عليه الحال مع "النصرانية". إن إقامة دولة "إسرائيل" فى عام ١٩٤٨، والتى أسست كوطن لليهود بعد تجربتهم القاسية والمريرة أثناء الهولوكوست فى أوروبا – وإن تضرر الفلسطينيون كثيرا جراء ذلك – قد مثلت عودة مؤسفة ومحزنة للعلاقات الغاضبة والمتوترة فيما بين اليهود والمسلمين. وبحق، فإن العلاقة المتوترة تلك هى جيوبوليتيكية بالأساس تدور وقائعها حول القضايا الحدودية والعلاقات مع دولة إسرائيل المستحدثة فى المنطقة.

رؤية الإسلام لليهودية والنصرانية

باعتباره خاتم الملل الإبراهيمية، يمكن للإسلام التعويل على تطور اليهودية والنصرانية والنظر إليهما بعين الاعتبار. ووفقا للقرآن، فقد اقترف اليهود العديد من الأخطاء الجسيمة حين تلقيهم للوحى. إذ اعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار، مع النظر إلى الرب على أنه إله اليهود وإلى الرسالة اليهودية على أنها

حكر عليهم. وقد نفى القرآن ذلك الأمر بالكلية، فلا يوجد لله شعب مختار ... (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)... القرآن/مريم الآية ٩٦ . ولقد كانت تلك رسالة القديس بولس أيضا فى الخلاف مع اليهودية – إذ إن رسالة عيسى ابن مريم تقول بأن الإله ليس إلها لليهود فحسب، وإنما هو إله العالمين. لذا ينطوى الإسلام على نظرة مراجعة لليهودية، ويتطابق مع النصرانية فى أن رسالة الله تشمل العالمين، وليست مقصورة على فصيل بعينه.

على أن الإسلام واليهودية يشتركان فى نقدهما للنصرانية، إذ يرى كلاهما فكرة وجود "ولد" للإله بأنها ضرب من الكفر والتجديف بما يخالف مفهوم الإله الواحد الذى لا يلد ولا يمكن إلا أن يكون فردا فى ذاته. إن مفهوم "الثالوث" هو ضرب من الشرك تحرمه الشريعتان. ووفقا للإسلام، فإن المسيح لم يصلب أو يمت، وإنما رفعه الله إليه. كذلك، فالمسيح، لا محمد، هو من سيهبط إلى الأرض يوم القيامة ليقتل المسيخ الدجال.

بيد أن للتطور التاريخى أثره فى تغيير الكيفية التى يدرك بها البشر ماهية الدين، ويساعد هذا الطرح فى تفسير التباينات فيما بين الملل. ويقر المسلمون بهذه الحقيقة، وإن بنهج نفعى بعض الشئ. ففى غير مرة، أخبرنى بعض المسلمين بـ"أن الملل الثلاث هى من لدن الله، وإن أرسل كل منها فى زمن مختلف على مسار تطور التاريخ البشرى. وفى كل مرة، يتطور وعى الإنسان وإدراكه بوجود الله. فوفقا للمصطلحات التقنية الحديثة، يمكننا النظر إلى اليهودية بأنها تشبه Word 2.0، ذلك التطبيق الحاسوبى الخاص بالكتابة، والذى عمل بكفاءة فى حينه، بل يمكنه العمل إذا أردت. ثم جاءت النصرانية فيما بعد، وكأنها Word 5.0، ذلك التطبيق الذى أضاف إلى خصائص سابقه ليجعله أكثر كفاءة وسرعة –أى بمدى تفهم رسالة الله وإدراكها. وبعد ذلك بستة قرون، جاء الإسلام، والذى يمكن تشبيهه بـ Word 8.0، ذلك التطبيق الأكثر تقدما وتعقيدا– فالإسلام هو الأكثر إدراكا ووعيا بالله ورسالته. لذا، فإن كل تطبيق مقبول وصالح للتطبيق، وإن أضيفت إليه بعض

التطويرات عبر الزمن".

بيد أننا غير ملزمين بقبول التعريف السابق للتطور الديني، والذي طرحه بعض المسلمين، رغما عن أن التعريف والمفهوم ذاته قد تم تبنيه من قبل بعض علماء الدين، حتى ولو كانت المقارنة بتطبيقات الحاسوب جد مزعجة. وفي كتابها "تاريخ الرب"، أوردت كارين آرمسترونج – علامات فارقة في مسيرة التطور الدائب للإدراك البشري "للمقدس" عبر الزمن.

ووفقا لتشبيه مسار التطور الديني بتطبيقات الحاسوب المتتابعة، يفتح المسلمون المجال لسؤال منطقي تتبعي يعد من قبيل الهرطقة إسلاميا : ألا يمكن، إذا، أن يأتي وحي جديد، أو بلغة الحاسوب Word 9.0؟ يذهب المسلمون إلى أن النبي محمداً قد جاء بالدين الخاتم والوحي الكامل، إذ إن محمدا هو خاتم النبيين، فلا نبي بعده. ويضع الاعتقاد السابق الإسلام في موقف محير ومريب، إذ ينطوي على كون الإسلام يتسم بالتسامح حين النظر إلى ما قبله من أديان، فيما تنتفي تلك الصفة حين استشراف المستقبل وانتفاء إمكانية مجئ أي دين بعد الرسالة المحمدية يرتكن إلى وحي جديد. ويعد هذا التصور مصدرا للتوتر ما بين الإسلام من جهة، وأفكار المعتقدات القاديانية والسيخية والبهائية من جهة أخرى، والتي تجد بعض جذورها في التربة الإسلامية، وإن عملت على "تحديث" الإسلام كما جاء بتعاليم أصحابها. لذا، فقد أدان رجال الدين الإسلامي تلك الأفكار بشدة، وتعرض أتباعها للاضطهاد في غير بلد مسلم.

رؤية اليهودية والنصرانية للإسلام

وأخيراً، نأتي لنظرة اليهودية والنصرانية وآرائهما بشأن الإسلام الوافد الجديد عليهما ... تلك النظرة المتسمة بعدم التلطف أو الترفق. فعلى خلاف قبول الإسلام واعترافه بكم كبير من نصوص كل من العهدين القديم والجديد، فإن كلتا الملتين تنكران محمدا كنبي لله ورسوله. كذلك، فليس مستغربا عدم اعترافهما

بفكرة كون الرسالة المحمدية ناسخة لسابقتيها أو معدلة ومكملة لهما. ولقد تناولت الأدبيات المسيحية، عبر العصور، محمدا بوصفه "مهرطقا" إلى الحد الذى صور فيه فى الدرك الأسفل من النار فى "الجحيم "Inferno لدانتى. (وارتباطا بهذا، تنظر الكنيسة الكاثوليكية، تاريخيا، إلى البروتستانتية على أنها هرطقة ورجس من عمل الشيطان، وكذلك الأمر فى نظرة الأخيرة لها).

تأسيساً على كل ما سبق، فإن العلاقات فيما بين الملل الإبراهيمية الثلاث هى علاقات مركبة ولافتة للنظر : إذ تشترك ثلاثتها فى الكثير من المناحى، وتتعارض فى كثير أخر. بيد أن الإسلام قد مثل حلقة جديدة وقوية من حلقات امتداد النهج التوحيدى بالشرق الأوسط، ذلك أنه ولد من رحم اليهودية والنصرانية وتعايش معهما فى ذلك الإقليم. وفيما أرسى الإسلام، بحق، دعائم نظام سياسى جديد، فنحن لا نتحدث هنا عن دين لم نعهد تعاليمه من قبل، أو آلهة جديدة، أو رؤى أخلاقية مغايرة. فلو لم يكن ثمة إسلام، لكان العالم أقل ثراء حضارياً وثقافياً، بيد أن قاعدة التفكير الحضارى والثيولوجى بالإقليم لم تكن لتختلف كثيراً.

تنشأ الأديان، فى معظمها، من ملل وعقائد سبقتها على مسرح الحياة. فقد نشأت البوذية من رحم العقيدة والحضارة والفلسفة الهندوسية، والتى لم تنظر إلى لاحقتها على أنها تجديف أو هرطقة. كذلك، فقد ولدت السيخية من مزيج جمع بعضا من الهندوسية والإسلام، ونبعت البهائية كمزيج من تعاليم النصرانية والإسلام. وقد تستحيل "الهرطقة" فعلاً إبداعياً للتفكير الدينى ذى الطابع التطورى حيث تجاهد الأجيال الناشئة، جيلا تلو الآخر، لإعادة تأويل الإشارات والمفاهيم الخاصة بالأديان المتقدمة واستجلاء غوامضها، ويتم ذلك عادة تماشيا والمحيط الحضارى المعاصر.

ومن المفارقات المدهشة أن تكون التفصيلات الدقيقة والسمات الحضارية الخاصة لأى من تلك الملل هى تلك التى ينظر إليها أتباع كل ملة على أنها العامل

الأساسي والأكثر أهمية لهذه الملة أو تلك ... تلك التفصيلات التي يمكن أن تستنفر الأفعال العدائية بحق الآخرين. إذاً، فعندما تؤدي التباينات الثيولوجية الطفيفة إلى تأجيج نيران الكراهية والعنف والتقاتل، فإن هذا لدليل دامغ على أن حقيقة الأمر تضمر بالفعل ما هو أبعد بكثير من مجرد خلافات ثيولوجية. ويشبه ما سبق انفجاراً خلافياً ينشأ بين زوجين بالمطبخ حول ما إذا كانت المكرونة قد تم إنضاجها على نحو مبالغ فيه : وهنا، فإن الغضب هو غضب حقيقي، بيد أن من يرقب ما حدث لحظيا ليدرك أن الأمر ينطوي على ما هو أبعد من الخلاف على كون المكرونة قد تم إنضاجها كما يجب أم لا.

لذا، ففيما يخص الشرق الأوسط ودياناته، فإن "الثيولوجيا" واعتباراتها ليست، في واقع الأمر منشأ الصراع ومصدره، إذ هناك عوامل أخرى على المحك : الهويات، المجتمعات، الدول، اعتبارات السياسة وعوامل السلطة والنفوذ، القوميات الإقليمية. ويمثل الدين شعارا متداولا كونه عنصرا هاما من ركائز الهوية، حيث تكون "الثيولوجيا" عاملا ثانويا. وحقيقة الأمر، فنادرا ما نكون نصارى، أو مسلمين، أو يهوداً بمحض اختيارنا، إذ نولد منتمين لإحدى تلك الملل التي نرتضي عمق محيطها وثراء جماعتها، فالأمر ليس مفاضلة ما بين جدالات وطروحات ثيولوجية بديلة تعرض علينا. إن "الجماعة اليهودية" كانت قوة حضارية ضاربة على مر السنين، لا بسبب دقائق الطقوس الخاصة بها، إذ يمكن أن تتعدد تلك الطقوس في تنوعها، إذ تلك هي الحال بالفعل. إن "الهوية الحضارية" واللحمة الثيولوجية، أياً ما كانتا، هما ما يشدان أزر المجتمع إثنيا ودينيا. وينسحب ما سبق على النصرانية أيضا، إذ يدعم الدين إرساء أسس الجماعات وقواعدها، التي قد تنجرف نحو الخلاف بل وحتى التقاتل على امتلاك الموارد وإحلال النظام وإحراز السؤدد والاستئثار بالزعامة.

وخلال العهد الحديث خطا العالم خطوات بسيطة، وإن كانت جادة، على درب المصالحة والوفاق الديني، بل وحتى على درب تقرير العناصر المشتركة فيما بين

الملل. فعلى سبيل المثال، فإن استخدامنا المطرد للفظة "اليهودى-المسيحى" يعد حديث العهد نسبيا، إذ لم تكتسب هذه اللفظة ذيوعاً إلا مع إرهاصات مولد القرن العشرين، وكان الهدف من نحتها توكيد مشتركات عقدية بذاتها لطالما تم تجاهلها إبان فترات التمييز ضد اليهود على امتداد معظم تاريخ النصرانية -حتى ولو كانت التباينات فيما بين النصرانية واليهودية هى الأعمق فيما بين الملل الثلاث- الإسلام واليهودية والنصرانية. ولقد شهدنا خلال العقدين المنصرمين، بل الثلاثة السابقة، نشهد مصطلح "الملل الإبراهيمية" وقد حاز قدرا من الذيوع والتداول ليدخل الإسلام ضمن دائرة المشترك فيما بينها. على أن الثيولوجيات لم تشهد تغيرات ذات بال على النقيض مما شهدته الرغبة البشرية فى تجاوز تلك التغيرات.

الدين/الدولة/السلطة/الهرطقة

يعد الدين قوة لا يستهان بها، إذ يتناول العديد من القضايا بالغة الأهمية مثل : معنى الحياة ومغزاها، الموت، الحرب، الجماعة، والسلوك الأخلاقى. كما يطبع الدين حالة الفرد النفسية وكذا سلوكه وتصرفاته وردود أفعاله. ونادرا ما يقتصر تأثير الدين فى الفرد فحسب، بل يتعداه ليشمل جماعة كاملة ممن يؤمن به ويضرب بسهم فى طقوسه التعبدية. كذلك، وفى الوقت ذاته، يساعد الدين فى تحديد جماعة نوى التفكير المتقارب وتقوية شوكتها.

وتأسيساً على النفوذ بالغ الثقل للدين، هل لنا أن نعجب من أن مراكز الهيمنة وأساطين النفوذ يتعين عليها السعى نحو تطويع ما يمثله من قوة لخدمة أغراضها وتحقيق مآربها؟ يمثل هذا التساؤل محور اهتمام الكتاب : العلاقات والتشابكات فيما بين الدين والسلطة والدولة. وتسعى الدولة جاهدة إلى اعتماد الدين وتبنيه، وكذلك الهيمنة عليه بتسييسه وجعله "دين الدولة". وحالما تم ربطه وإلحاقه بالدولة، تمسى مبادؤه وعقائده موصولة بهيمنة الدولة ونفوذها. وقد يكون الدين، والحالة كتلك، هو اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ... أيا ما كان. فعندها لا تكون

الخلافات العقدية شأنا ثيولوجيا فحسب، وإنما يكون لها خبايا ومضامين سياسية خطيرة. ويرمى كل من يخالف أيديولوجية الدولة أو دينها المسيس بالهرطقة، بل قد تضحى تلك المخالفة رديفا لخيانة الوطن.

إذا ... فما الهرطقة فى واقع الأمر؟ إن "الهرطقة" لتستدعى إلى الذاكرة مشاهد محاكم التفتيش، وأدوات التعذيب، والاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، والشهداء، والحرق صلبا وهى المشاهد التى ارتبطت بالهرطقة على امتداد الزمن. بيد أنها قد نظر إليها، فى غالب الأحوال، على أنها ظاهرة سيئة السمعة. وفى الحقيقة، فإنها موصولة بمنظومة ومسيرة إبداعية عبر تاريخ الأفكار وتطورها.

إن أصل كلمة "هرطقة" فى اليونانية ينطوى على معنى خال من أى ارتباط سلبى أو سوء نية لصيق بالكلمة. فالهرطقة تعنى "الاختيار" – أى القرار الواعى لاتباع مسار بعينه من مسارات الأفكار. أما فى النصرانية، فقد بدأت الكلمة تشير إلى الانحراف عن التعاليم الأرثوذكسية، حيث لا يقصد بالأرثوذكسية، بالقطع، أكثر من "العقيدة الصائبة". ولكن، من ذا الذى يمكنه تعيين ما هو "صائب" أو ما هو "حق"؟ ذلكم جوهر المشكلة : إذ تعتمد طبيعة "الهرطقة ومداها على من ينظر إليها. ويكون تحديد ما يندرج تحت "العقيدة الصائبة" امتيازا للسلطة وحكرا عليها.

وقد وجدت "الهرطقة" منذ البدايات الأولى لمعظم الملل والعقائد، حين اتهم كل من ناهض وانتقد الأعراف المجتمعية السائدة بشأن الآلهة وطبيعة الروح – واعتبر مسئولاً عن الكوارث التى حاقت بالمجتمع. وقد كان يتم نحر الضحايا على المذبح، وقذف العذارى فى البراكين الحارقة رغبة فى استرضاء الآلهة. إن المصاعب والأخطار التى واجهها أنبياء "العهد القديم" تسلط الضوء على ما أدت إليه معاصى اليهود وأخطاؤهم من معاناة لهم، وكيف سيوقع الرب جزاءات إضافية بجماعة اليهود لاستهزائهم بوصاياه. فقد ألقى النبى يونس بن متى فى البحر، وبشر المسيح بقرب نهاية هذا العالم الأثيم.

إن جماعة "العقيدة الصائبة" أو الأرثوذكسية تنحو إلى أن تكون مشكلة خلافية كبيرة للملل الإبراهيمية الثلاث، بأكثر مما قد تكون للهندوسية أو البوذية أو الطاوية أو الكونفوشيوسية. وقد يكون ذلك، في جانب منه راجعا، إلى كون الملل الإبراهيمية قد أوحى برسالاتها من قبل الله، بما يعني وجودها الأزلي منذ بدء الخليقة وكونها سابقة للحظة الوحي برسالاتها إلى الأنبياء الداعين إلى اتباعها. إذا، فلا توجد ثمة تنازلات أو مواءمات فيما يخص أمر المعتقد وشأن الملة.

ويحضرني في هذا السياق نقاش دارت وقائعه في الهند منذ ما يربو على عقد مضى، حين كنت أقوم ببعض الأبحاث عما سأكتبه في كتاب لي محوره "الإسلام في مواجهة الغرب". ولقد أخبرني العديد من العلماء والباحثين الهندوس بأن افتراضي معيب منذ البدء. فالمحك الحقيقي لا ينصرف إلى العلاقة ما بين الإسلام والغرب على الإطلاق، بل إلى ما بين الهندوسية، كمعتقد تعددي الآلهة، وما بين غيره من الأديان التوحيدية في الغرب – اليهودية والنصرانية والإسلام تحديدا. فطبقا لوجهة النظر الهندوسية، تكون الملل التوحيدية في التزامها بعبادة إله واحد أضيق أفقا وأقل تسامحا عما عداها من عقائد وملل.

ومن الأمور المألوفة لدينا في هذا الصدد حسن استخدام الدين أو سوء توظيفه من قبل الدول وجماعات النفوذ في الحرب والسياسة وغيرهما من الصراعات الناشئة لتحقيق مآرب بعينها، وذلك على امتداد التاريخ. على أنه يكون، بطبيعة الحال، من التبسيط والسذاجة بمكان اختزال ظاهرة "الدين" برمتها فيما لا يعدو كونه ذريعة أو ستارا للنفوذ والصراع، ومع ذلك، فإن استغلال الدين لمآرب دنيوية أو علمانية يكاد يكون عاملا ثابتا في التاريخ السياسي والاجتماعي. لذا، تجد المؤسسات والهيئات الدينية نفسها تمضي أوقاتاً طويلة في محاولاتها لحماية "العقيدة الصائبة". إذا، ووفق هذا المنطق، تجئ الأرثوذكسية كممثل للحق عند تعريف الأفكار التي تؤثر في السلطة والنفوذ والتحكم فيها.

إذا، فدعونا لا ننحى باللائمة على الدين، إذ تسود الأرثوذكسية مناحى النشاط الإنسانى كافة، بما فيها التاريخ والفلسفة وحتى العلوم. وتوجد "الأرثوذكسية" أينما حلت الثقة الدوغماطيقية محل النزعة للتشكك (عدم الركون إلى صحة الأمور كلها) والميل إلى طرح الأسئلة والنقاش الجدلى، وحين تدعم السلطة من تلك الثقة وتساندها. وفى هذا الخصوص، يمكن أن نستدعى إلى ذاكرتنا كيف تم دعم الأرثوذكسية الشيوعية وتعضيدها بشدة فى الاتحاد السوفييتى الماركسى الملحد، عبر طيف ممتد من الحقول والمناشط الثقافية كالتاريخ والفنون والعلوم. وقد واجه المهرطقون الأيديولوجيون فى الكثير من مجالات النشاط قدرهم المحتوم، عادة، برصاصة أطلقت على مؤخرة رءوسهم فى زنازين سجون وكالة الاستخبارات الروسية. إذا، فقد تزاوجت الأرثوذكسية والأيديولوجية لتعزيز رفاه حكم الحزب الشيوعى والحفاظ عليه. كذلك، تتفاوت الأحزاب السياسية، وبخاصة تلك المؤدلجة، صعوداً وهبوطاً فى قدرتها على إيضاح المعتقدات التى تجتذب المريدين وتنظم صفوفهم. وتسعى الأحزاب لفرض الإجماع الأيديولوجى على أعضائها. إذ إنه، فى ظل غياب أى شكل من أشكال الإجماع، تتقوض أركان الحزب برمته. وتختلف صراعات الأحزاب السياسية للحفاظ على النقاء الأيديولوجى، على نحو طفيف – عند تحكم الدولة بالعقيدة الدينية عدا أن تلك التنظيمات الدينية تكون مرجعيتها "للقوة الكبرى"– الإله.

وتقع "الهرطقة" عند نقطة التقاء الإيمان والسلطة وتماسهما. فحين يتم مأسسة الأديان، فإنها تواجه مشكلة "امتلاك" المعتقد والتحكم به. فالإيمان لا يعنى شيئا ألبتة لو كان الكل حرا فى الإيمان بما يرتئيه ويرغب فيه، أو حرا فى إبداع ضرب من الإيمان يخلقه خصيصا لمقتضيات أحواله. ولقد كان الاهتداء إلى "الله" فى النصوص المقدسة الأساس المنطقى الذى انبنت عليه حركة الإصلاح البروتستانتى– وهو الحدث الذى أدى إلى تمزيق النصرانية ليحيلها شظايا مبعثرة من الجماعات الدينية الصغيرة. كذلك، فإن السلفية الأصولية أو "الفكر الوهابى"

تعد ثورية لدعوتها الفرد لتفسير "المقدس" وتأويله مباشرة، دون أى وسيط بين الفرد وبين ربه.

إذاً، فالسلطة هى الشرك النهائى والمفسد الأكبر، إذ كلما كان الدين ألصق بنفوذ الدولة وسلطتها، كان انحساره وخروجه من دائرة "الثقافة" و"الروح"، واقترابه من دائرة "السياسة" ونطاقها مع مضامين مباشرة لنفوذ الدولة وسلطتها. وعندها لا يمكن للدولة أن تكون حيادية تجاه "الثيولوجيا". وحين تكون معتقدات الدولة الرسمية مهددة، فإن سلطة الدولة ذاتها تكون مهددة كذلك – وهو الأمر الذى لا تتقبله الدولة أو ترتضيه.

ويبدو الأمر تبادلاً للأدوار والخدمات، إذ يكون المعتقد الثيولوجى فى خدمة مصالح الدولة التى توظف، بدورها، رجال دين يمنحون "بركاتهم" الثيولوجية لتأويلات الدولة لتبرير مصالحها التى تخدمها ... وهلم جرا. ويستمر الإسلام والنصرانية، بما لهما من ارتباط طويل بمختلف سلطات الدول ونفوذها على مدار الزمن، فى مواجهة ذلك التحدى إلى اليوم. بل إن الكنيسة والدولة فى المسيحية، فى حقيقة الأمر، كانتا أكثر ترابطا على امتداد معظم التاريخ المسيحى، بأكثر مما كانت عليه الحال فى الإسلام، حيث لم يمارس علماء الدين، فى الأعم، دورا فى سياسة الدولة– إلى أن حدث ذلك فى جمهورية إيران الإسلامية فى عالمنا المعاصر. وبالمقابل، فإن اليهودية والتى تفتقر إلى أدوات خاصة بسلطة الدولة، على امتداد أزمان طوال، أمكنها تجنب ذلك المسار، رغما عن أنها أصبحت موصولة بسياسات دولة إسرائيل ونفوذها، لذلك فلم تعد اليهودية، كذلك، مستثناه كما كانت فى السابق.

وفى المقابل، فحين يصبح الدين مستقلا عن الدولة، تفقد الأخيرة بالفعل نصيباً كبيراً من حماية الأرثوذكسية الدينية. بيد أن الأمر لن يكون سلسا للغاية حتى ولو كانت تلك هى الحال. إذ يمكن للمعتقدات الدينية الشخصية أن تمارس أثرا كبيرا فى الدولة إذا كان لبعض الآراء والمعتقدات أثر فى صورة الأفراد

الذهنية عن الدولة. وهكذا، فلبعض التنظيمات الإنجيلية فى الولايات المتحدة أثر مباشر فى رؤية الشعب لحكومته، كذلك يمكن للتنظيمات الأصولية الإسلامية، وفقا لوجهة نظرها تجاه الدولة، أن تكون مصدرا مباشرا لتهديد شرعية أعتى الأنظمة السلطوية العلمانية.

ولا يقصد من ذلك كله تبنى الانطباع بأن الدين لا يتعدى كونه واجهة غائمة لصراع السلطة. على أنه يمكن أن يكون كذلك. بيد أنه يجب ألا تحط القدرة على تطويع الدين لمآرب سياسية وتجارية من شأن القوة الروحية العظيمة للإيمان فى تشكيل الحياة الشخصية للفرد، وكذا فلسفته وسلوكه، وبالتالى سلوك المجتمع ككل.

إن التسامح ذاته يمكن أن يكون خادعا. فالهندوسية قد عمدت، على نحو كبير، إلى تجنب معظم المشاكل الخلافية الخاصة بالسلطة وبالعقيدة الصائبة – الأرثوذكسية. وبحق، فإن مفهومى "الأرثوذكسية" و"الهرطقة" لا وجود لهما، تقريبا، فى الهندوسية، إذ تستوعب جميع الأفكار الدينية فى بوتقتها، حيث تمثل كل فكرة إلهاما جزئيا، وشذرات من عناصر الحقيقة الشاسعة كمكونات من "حقيقة المقدس" ... تلك الحقيقة الهائلة العصية على الوصف أو التشبيه، وغير المدركة، بالكلية، على وجه الحقيقة. بيد أن أيا من عناصر "الهندوسية" المتسامحة متعددة الآلهة لا تستدعى الظن بأن الدولة الغالب عليها "العقيدة الهندوسية"، – أو أن أتباع "الهندوسية" ومريديها – ليس بإمكانها اتباع سياسة التمييز بجميع أشكاله، وكذا الاضطهاد والعنف الوحشى بوجه آخرين ينتمون إلى عقائد وملل أخرى. ولقد شهد العالم مؤخراً اللجوء إلى استخدام العنف من قبل قادة هندوس مسلحين من أنصار القومية الهندوسية – ضد المسلمين والسيخ والجماعات المسيحية.

ويرتبط ما سبق كثيرا بالاعتبارات السياسية والقومية، فيما يكون ارتباطه بالعقيدة الدينية فى ذاتها ضعيفا واهيا. فالهندوسية يمكن أن تتحول إلى قومية

دينية ضيقة وغير متسامحة إذا ارتبط الأمر بالصراع ضد الدخلاء أو غير المنتمين إليها، وهو الأمر بالغ الشبه بما تقوم به الأصولية الإسلامية حين تنشط "كقومية إسلامية" ضد "الغارات" الغربية. وحتى البوذية، رغما عن كونها، فلسفيا، دعوة سلام عالمية، إلا أنها حين ترتبط ببعض الصراعات الإثنية كتلك التى تخاض مع "السينهال" بسريلانكا ضد "التاميل" الهندوس، فسرعان ما تتخلى عن اعتباراتها الأخلاقية الداعية إلى السلام العالمى، حتى من قبل الرهبان البوذيين، حين يرتبط الأمر بالقتال على شرف الجماعة السينهالية البوذية. إذاً، تبدو "الثيولوجيا" غير ذات بال فى هذا السياق.

التسامح / الضم / الاستبعاد

يبدو أنه يمكننا تقسيم العالم، من وجهة النظر السيكولوجية، إلى معسكرين – أو بالأحرى عقليتين متمايزتين. فهناك من يسعى نحو ثقافة الاستبعاد، نحو إقامة سياج أو حدود بينه وبين الآخرين، من يرغب فى اعتبار معتقداته وما يؤمن به فريدا بمنأى عما يعتقده الآخرون أو يؤمنون به، من يرى صواب رأيه ووجهته وخطأ رأى الآخرين ووجهتهم. وعلى الجانب الآخر، هناك أولئك الذين يهدفون إلى البحث عن قواسم مشتركة ونقاط اتفاق تنتظم ما يؤمنون به هم والآخرون، من يسعون إلى استجلاء دوائر الاتفاق والتطابق ومساحات التقاطع مع الآخرين ورؤاهم. وينسحب هذا حتى ما بين المؤمنين بالملة ذاتها أو المعتقد نفسه، فكما ذهب رجل حكيم فى تصوير ما سبق : "لقد رسموا مربعا وتركونى بخارجه، فرسمت دائرة وضمنتهم بها".

ولكن، ما العامل السيكولوجى الذاتى الذى يدفع بعض معتنقى ديانة ما بعيدا للبحث عن أوجه الخلاف وترسيخ فكرة الاستبعاد وتكريسها، وذلك الذى يدفع آخرين نحو التلاحم وترسيخ مبدأ الاستقطاب؟ تبرز هذه الثنائية كثيرا فى المناقشات التى تجرى بالغرب حول قضية العلاقة مع الإسلام. فعندما أحاضر عن

أوجه الشبه ونقاط الاشتراك فيما بين الملل الإبراهيمية، أواجه فى بعض الأحايين باعتراضات وإنكار. وأذكر، على سبيل المثال، أن "الله" – عند المسلمين هو الإله ذاته مثل Dios عند الإسبان، و Dieu عند الفرنسيين، و Bog لدى الروس، و Tanri عند الأتراك. ويذهب نصارى العرب إلى الإشارة إلى إلههم بكلمة "الله". إذا، فتلك كلها كلمات متباينة للغات مختلفة تشير إلى المفهوم ذاته – الإله الواحد. بيد أن بعض المسيحيين الغربيين سيعترض قائلا : " "الله" ليس ربى، فربى قد جاء بعيسى كولده الأوحد ... عيسى هو شفيعى وخلاص البشرية، وهو ليس الرب فى "الإسلام" ". كذلك، سيعترض بعض اليهود بالقول بأن "الإله لدى النصارى ليس ربى لأنه وفقا لهم قد جاء بولد، وهو مفهوم تنكره اليهودية وتستهجنه. كذلك، فوفقا للعهد القديم، فإن عيسى لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون هو المسيح الذى يعتبره المسيحيون كذلك". ويذهب بعض محدودى الأفق من المسلمين إلى اعتبار اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم "أهل الكتاب".

ولعل أولئك الذين يستشعرون خطرا يتهدد حضارتهم أو جماعتهم سينحون نحو إقامة حدود قاطعة وسيعتمدون نهجا استبعاديا فى محاولاتهم لحماية إرثهم الحضارى المهدد. وفى تلك الحالة، فإننا نتحدث بالفعل عن عناصر علم النفس الذاتى والاجتماعى ملامحه، وليس عن "الثيولوجيا" مطلقاً.

إذا، فقد رأينا كيف أن "الإسلام" يتوافق تماما وينسجم مع تطور الفكر الدينى بصفة عامة، بحيث يمكن اعتباره نقطة تتوسط القطبين اليهودى والمسيحى. فالإسلام لم يأت كصدمة دينية للإقليم، وإنما جاء ليتوافق مع المصالح الجيوبوليتيكية للقوى به كما فعلت المسيحية أنفا. لذا، فسيتناول سردنا، فى معظمه، تفاعل بلدان الإقليم مع تلك الملل، حيث تهيمن أهداف الدولة ونفوذها على أى دور استقلالى لهذه الملة أو تلك. وتمهد الحقيقة السابقة المناخ لطرح جدلى رئيسى تناوله الكتاب بالبحث، يذهب إلى أن تاريخ العلاقات فيما بين الشرق

الأوسط والغرب، يدور فى أغلبه، وبحق، حول الروابط الجيوبوليتيكية وترتيباتها فيما يخص الممالك والدول، ولا يكاد يرتبط بالشأن الدينى إلا قليلا، وذلك بغض الطرف عن الشعارات المرفوعة والحماسة الأيديولوجية المعتمدة شعبيا لنصرة هذه الدولة أو تلك. فإذا نحينا الإسلام جانبا عن تلك المعادلة، لألفينا حالة الشقاق واللدد ذاتها ما بين الغرب من جهة، والشرق الأوسط من جهة أخرى.